بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِل فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أما بعد: فهذه بعض من فضائل الشتاء من كتاب" لطائف المعارف " لابن رجب الحنبلي رحمه الله .

في ذكر فصل الشتاء

خرج الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (الشتاء ربيع المؤمن) وخرجه البيهقي وغيره وزاد فيه: "طال ليله فقامه وقصر نهاره فصامه" [١].

إنما كان الشتاء ربيع المؤمن لأنه يرتع فيه في بساتين الطاعات ، ويسرح في ميادين العبادات ، وينزه قلبه في رياض الأعمال الميسرة فيه ، كما ترتع البهائم في مرعى الربيع فتسمن وتصلح أجسادها فكذلك يصلح دين المؤمن في الشتاء بما يسر الله فيه من الطاعات ، فإن المؤمن يقدر في الشتاء على صيام نهاره من غير مشقة ولا كلفة تحصل له من جوع ولا عطش فإن نهاره قصير بارد فلا يحس فيه بمشقة الصيام وفي المسند والترمذي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (الصيام في الشتاء الغنيمة الباردة) [٢] .

وكان أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: (ألا أدلكم على الغنيمة الباردة ؟ قالوا: بلى فيقول : الصيام في الشتاء) .ومعنى كونها غنيمة باردة أنها غنيمة حصلت بغير قتال ولا تعب ولا مشقة فصاحبها يحوز هذه الغنيمة عفوا صفوا بغير كلفة.

وأما قيام ليل الشتاء فلطوله يمكن أن تأخذ النفس حظها من النوم ثم تقوم بعد ذلك إلى الصلاة فيقرأ المصلي ورده كله من القرآن وقد أخذت نفسه حظها من النوم فيجتمع له فيه نومه المحتاج إليه مع إدراك

[١] ضعيف انظر ضعيف الجامع (٣٤٢٩) و (٣٤٣٠) .
[٢] انظر السلسلة الصحيحة (١٩٢٢) .

ورده من القرآن فيكمل له مصلحة دينه وراحة بدنه .

– ومن كلام يحيى بن معاذ : (الليل طويل فلا تقصره بمنامك والإسلام نقي فلا تدنسه بآثامك) بخلاف ليل الصيف فإنه لقصره وحره يغلب النوم فيه ، فلا تكاد تأخذ النفس حظها بدون نومه كله ، فيحتاج القيام فيه إلى مجاهدة ، وقد لا يتمكن فيه لقصره من الفراغ من ورده من القرآن .

– ويروى عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال :(مرحبا بالشتاء تنزل فيه البركة ويطول فيه الليل للقيام و يقصر فيه النهار للصيام) ، وروي عنه مرفوعا ولا يصح رفعه .وعن الحسن قال :(نِعم زمان المؤمن الشتاء ليله طويل يقومه ونهاره قصير يصومه) .

– وعن عبيد بن عمير أنه كان إذا جاء الشتاء قال:(يا أهل القرآن طال ليلكم لقراءتكم فاقرأوا وقصر النهار لصيامكم فصوموا) .

قيام ليل الشتاء يعدل صيام نهار الصيف ولهذا بكى معاذ عند موته وقال:(إنما أبكي على ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر) .

– وقال معضد:(لولا ثلاث ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء ولذاذة التهجد بكتاب الله ما بليت أن أكون يعسوبا) .

* القيام في ليل الشتاء يشق على النفوس من وجهين :

أحدهما : من جهة تألم النفس بالقيام من الفراش في شدة البرد ، قال داود بن رشيد :(قام بعض إخواني إلى ورده بالليل في ليلة شديدة البرد فكان عليه خلقان فضربه البرد فبكى فهتف به هاتف أقمناك وأنمناهم وتبكي علينا) خرجه أبو نعيم.

والثاني: بما يحصل بإسباغ الوضوء في شدة البرد من التألم وإسباغ الوضوء في شدة البرد من أفضل الأعمال ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات) ؟

قالوا: بلى يا رسول الله قال : (إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط) .

– وفي حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه رأى ربه عز وجل يعني في المنام (فقال له: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: في الدرجات والكفارات؟ قال: والكفارات إسباغ الوضوء في الكريهات ونقل الأقدام إلى الجمعات) وفي رواية : (الجماعات وانتظار الصلاة بعد الصلاة من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه والدرجات: إطعام الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام) وذكر الحديث خرجه الإمام أحمد والترمذي وفي بعض الروايات: (إسباغ الوضوء في السبرات) والسبرة : شدة البرد إسباغ الوضوء في شدة البرد من أعلى خصال الإيمان .

– روى ابن سعد بإسناده: أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصى ابنه عند موته فقال له : (يا بني عليك بخصال الإيمان قال : وما هي؟ قال : الصوم في شدة الحر أيام الصيف وقتل الأعداء بالسيف والصبر على المصيبة وإسباغ الوضوء في اليوم الشاتي وتعجيل الصلاة في يوم الغيم وترك ردغة الخبال فقال : ما ردغة الخبال؟ قال : شرب الخمر) .

– وروى الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير قال: (ست من كن فيه فقد استكمل الإيمان : قتال أعداء الله بالسيف والصيام في الصيف وإسباغ الوضوء في اليوم الشاتي والتبكير بالصلاة في يوم الغيم وترك الجدال والمراء وأنت تعلم أنك صادق والصبر على المصيبة) وقد روي هذا مرفوعا خرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة له بإسناد فيه ضعف عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان: ضرب أعداء الله بالسيف وابتدار الصلاة في اليوم الدجن وإسباغ الوضوء عند المكاره وصيام الحر وصبر عند المصائب وترك المراء وأنت صادق) .

– وفي كتاب الزهد للإمام أحمد عن عطاء بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:(قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ : يا رب من هم أهلك الذين هم أهلك تظلهم في ظل عرشك؟ قال: هم البرية أيديهم الطاهرة قلوبهم الذين يتحابون لجلالي الذين إذا ذكرت ذكروني وإذا ذكرت ذكرت بذكرهم الذين يسبغون الوضوء في المكاره وينيبون إلى ذكرى كما تنيب النسور إلى

أوكارها ويكلفون بحبي كما يكلف الصبي بحب الناس ويغضبون لمحارمي إذا استحلت كما يغضب النمر إذا حرب.

*****

– معالجة الوضوء في جوف الليل للتهجد موجب لرضا الرب ومباهات الملائكة . ففي شدة البرد يتأكد ذلك ففي المسند وصحيح ابن حبان عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (رجلان من أمتي يقوم أحدهما من الليل فيعالج نفسه إلى الطهور وعليه عقد فيتوضأ فإذا وضأ يديه انحلت عقدة وإذا وضأ وجهه انحلت عقدة وإذا مسح رأسه انحلت عقدة وإذا وضأ رجليه انحلت عقدة فيقول الرب عز وجل للذين وراء الحجاب : انظروا إلى عبدي هذا يعالج نفسه ما سألني عبدي هذا فهو له) [١] .

– وفي حديث عطية عن أبي سعيد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إن الله يضحك إلى ثلاثة نفر: رجل قام من جوف الليل فأحسن الطهور ثم صلى و رجل نام وهو ساجد ورجل في كتيبة منهزمة على فرس جواد لو شاء أن يذهب لذهب) [٢].

– قال أبو سليمان الداراني: (كنت ليلة باردة في المحراب فأقلتني البرد فخبأت إحدى يدي من البرد وبقيت الأخرى ممدودة فغلبتني عيني فهتف بي هاتف: يا أبا سليمان قد وضعنا في هذه ما أصابها ولو كانت الأخرى لوضعنا فيها قال : فآليت أن لا أعود إلا ويداي خارجتان حرا كان أو بردا) .

– قال مالك رحمه الله : (كان صفوان بن سليم يصلي يعني بالليل في الشتاء في السطح وفي الصيف في بطن البيت يتيقظ بالحر والبرد حتى يصبح ثم يقول : هذا الجهد من صفوان وأنت أعلم وإنه لترم رجلاه حتى يعود مثل السقط من قيام الليل ثم يظهر فيها عروق خضر) .

[١] مسند الإمام أحمد [١٧٤٥٨] و قال المحققون : (حديث صحيح) .
[٢] انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة [٧ / ٤٥٦] ، وقال الألباني هناك : (وهذا إسناد ضعيف مظلم،ليس فيه دون الصحابي ثقة غير عيسى بن المختار) .

– وكان صفوان وغيره من العباد يصلون في الشتاء بالليل في ثوب واحد ليمنعهم البرد من النوم ومنهم من كان إذا نعس ألقى نفسه في الماء ويقول: هذا أهون من صديد جهنم.

– كان عطاء الخرساني ينادي أصحابه بالليل (يا فلان ويا فلان ويا فلان قوموا فتوضئوا وصلوا فقيام هذا الليل وصيام هذا النهار أهون من شرب الصديد ومقطعات الحديد غدا في النار الوحا الوحا النجا النجا) .

– كان قوم من العباد يبيتون في مسجد وكانوا يتهجدون في الليل فاستيقظ واحد منهم ليلة فوجد إخوانه نياما فسمع هاتفا يهتف من جانب المسجد:

أيا عجبا للناس من قرت عيونهم * مطاعم غمض بعدها الموت منتصب
وطول قيام الليل أيسر مؤنة * وأهون من نار تفور وتلتهب

– وفي الحديث الصحيح أن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رأى في منامه كأن آتيا فانطلق به إلى النار حتى رآها ورأى فيها رجالا يعرفهم معلقين بالسلاسل فأتاه ملك فقال له: لن تراع لست من أهلها فقص ذلك على أخته حفصة فقصته حفصة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: (نِعمَ الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل) فكان ابن عمر لا ينام من الليل إلا قليلا [١] .

– قال الحسن: (أفضل العبادة الصلاة في جوف الليل) وقال: (هو أقرب ما يتقرب به إلى الله عز وجل) وقال: (ما وجدت في العبادة أشد منها) .

– ورؤي سلمة بن كهيل في المنام فقال : (وجدت أفضل الأعمال قيام الليل ما عندهم أشرف منه) .

– ورأى بعض السلف خياما ضربت فسأل لمن هي فقيل للمتهجدين بالقرآن فكان بعد ذلك لا ينام.

فما لي بعيد الدار لم أقرب الحمى * وقد نصبت مسافرين خيام
علامة طردي طول ليلي نائم * وغيري يرى أن المنام حرام

[١] وهو في الصحيحين وغيرهما .

– ومن الصالحين من كان يلطف به في الحر والبرد ، كما دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلي: أن يذهب الله عنه الحر والبرد فكان يلبس في الشتاء ثياب الصيف وفي الصيف ثياب الشتاء ولا يجد حرا ولا بردا [١].

– كان بعض التابعين يشتد عليه الطهور في الشتاء فدعا الله عز وجل فكان يؤتى بالماء في الشتاء وله بخار من حره .

– رأى أبو سليمان في طريق الحج في شدة البرد شيخا عليه خلقان وهو يرشح عرقا فعجب منه وسأله عن حاله فقال: (إنما الحر والبرد خلقان لله عز وجل فإن أمرهما أن يغشياني أصابني وإن أمرهما أن يتركاني تركاني وقال: أنا في هذه البرية من ثلاثين سنة يلبسني في البرد فيحا من محبته ويلبسني في الصيف بردا من محبته) .

– وقيل لآخر وعليه خرقتان في يوم برد شديد: لو استترت في موضع يكنك من البرد فأنشد :

ومحسن ظني أنني في فنائه * وهل أحد في كنه يجد البردا

– وأما من يجد البرد وهم عامة الخلق فإنه يشرع لهم دفع أذاه بما يدفعه لباس وغيره.

– وقد امتن الله على عباده بأن خلق لهم من أصواف بهيمة الأنعام و أوبارها وأشعارها ما فيه دفء لهم قال الله تعالى: ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل:٥] وقال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ [النحل: ٨٠].

– وروى ابن المبارك عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر قال:(كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا حضر الشتاء تعاهدهم وكتب لهم بالوصية إن الشتاء قد حضر وهو عدو فتأهبوا له أهبته من الصوف والخفاف والجوارب واتخذوا الصوف شعارا ودثارا فإن البرد عدو سريع دخوله بعيد خروجه) وإنما كان يكتب عمر إلى أهل الشام لما فتحت في زمنه فكان يخشى على من بها من الصحابة وغيرهم ممن لم يكن له عهد بالبرد أن يتأذى ببرد الشام وذلك من تمام نصيحته وحسن نظره وشفقته وحياطته لرعيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

[١] انظر سنن ابن ماجة (١١٧) وحسنه الشيخ الألباني في تعليقه عليه.

– ومن فضائل الشتاء: أنه يذكر بزمهرير جهنم و يوجب الإستعاذة منها و في حديث أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : (إذا كان يوم شديد البرد فإذا قال العبد: لا إله إلا الله ما أشد برد هذا اليوم: اللهم أجرني من زمهرير جهنم قال الله تعالى لجهنم : إن عبدا من عبادي استجار بي من زمهريرك وإني أشهدك أني قد أجرته" . قالوا : ما زمهرير جهنم . قال : بيت يلقى فيه الكفر فيتميز من شدة البرد) [١].

– قام زبيد اليامي ذات ليلة للتهجد فعمد إلى مطهرة له كان يتوضأ منها فغمس يده في المطهرة فوجد الماء باردا شديدا كاد أن يجمد من شدة برده فذكر الزمهرير ويده في المطهرة فلم يخرجها حتى أصبح فجاءته جاريته و هو على تلك الحال فقالت:ما شأنك يا سيدي لم لا تصلي الليلة كما كنت تصلي وأنت قاعد هنا على هذه الحالة ؟ فقال :(ويحك إني أدخلت يدي في هذه المطهرة فاشتد علي برد الماء فذكرت به الزمهرير فوالله ما شعرت بشدة برده حتى وقفت علي فأنطوي لا تحدثي بهذا أحدا ما دمت حيا) فما علم بذلك أحد حتى مات رحمه الله . في الحديث الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إن لجهنم نفسين في الشتاء ونفسا في الصيف فأشد ما تجدون من البرد من زمهريرها وأشد ما تجدون من الحر من سمومها) [٢].

– وروي عن ابن عباس قال : (يستغيث أهل النار من الحر فيغاثون بريح باردة يصدع العظام بردها فيسألون الحر) وعن مجاهد قال : (يهربون إلى الزمهرير فإذا وقعوا فيه حطم عظامهم حتى يسمع لها نقيض) .

– وعن كعب قال: (إن في جهنم بردا هو الزمهرير يسقط اللحم حتى يستغيثوا بحر جهنم) . .

وقد قال الله عز وجل: ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً، إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً، جَزَاءً وِفَاقاً ﴾ [النبأ: ٢٤, ٢٦] وقال الله تعالى: ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ [ص:٥٧] . قال ابن عباس : (الغساق : الزمهرير البارد الذي يحرق من برده) وقال مجاهد: (هو الذي لا يستطيعون أن يذوقوه من برده) وقيل : إن الغساق : البارد المنتن أجارنا الله تعالى من جهنم بفضله وكرمه . .اه.

[١] سلسلة الأحاديث الضعيفة (٦٤٢٨) و حكم عليه الشيخ الألباني بالنكارة.
[٢] أصله في الصحيحين.

من فضائل الشتاء

من كتاب لطائف المعارف

لابن رجب الحنبلي رحمه الله
(٧٣٦ – ٧٩٥ هـ)